الأبعاد العقدية في نداءات القرآن لأهل الكتاب

د. ماجد محمد علي أحمد شبالة
أستاذ العقيدة والأديان والفرق (المساعد)
كلية الآداب – جامعة اب- اليمن

ملخص البحث

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه , وبعد :

عندما نستقرى ءايات القرآن الكريم نرى انه اتسم بالشمول في نداءاته وتوجيهاته ، حيث لم يجعل نداءه لفئة دون فئة ، او جنس دون جنس او اهل دين دون غيرهم بل شمل الاصناف جميعا، والمتأمل في القرآن الكريم يجد أنه حفل بنصوص عديدة حول علاقة المسلمين بغيرهم , وخصوصاً أهل الكتاب , حيث شغل خطاب القرآن الكريم لأهل الكتاب وحديثه عنهم حيزاً كبيراً , وجاء مختلفاً عن خطابه لغيرهم من الكفار , حيث تنوعت وسائل الخطاب لأهل الكتاب , وغاياته , وتعددت مناهجه.

وهذا البحث يعرض لأحد أساليب القرآن الكريم في حواره مع أهل الكتاب حيث يتتبع الآيات التي جاء فيها النداء لأهل الكتاب , ويحلل أبعادها العقدية وآثارها على العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب قديماً وحديثاً .

ويظهر لنا من خلال تلك النداءات أنها تعالج قضايا عقدية في مضمونها , وتضع تصوراً واضحاً لما ينبغي أن يكون عليه الحوار مع أهل الكتاب , وتؤسس لمشروع جمع كلمة أتباع الأنبياء على كلمة الحق التي جاء بها الأنبياء جميعاً ن وتمثلت في صورتها النهائية في ما جاء به خاتم الانبياء صلى الله عليه وسلم .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّداً عبده ورسوله .

أما بعد: فقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ،يتلو عليهم آياته ،ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فأقام الله به الحجة ، وأوضح به المحجة ،أرسله الله تعالى على حين فترة من الرسل بالهدى ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وقد كانت البشرية حين بعثته ρ بأجمعها في أمر مريجٍ ، ووضع مضطرب (والناس إذ ذاك أحد رجلين ؛ إما كتابي معتصم بكتاب ، إما مبدل وإما منسوخ، ودين دارس، بعضه مجهول ، وبعضه متروك ، وإما أمي من عربي وعجمي ،مقبل على عبادة ما استحسنه وظن أنه ينفعه). (1)

ولم يسلم من الاضطراب حتى أتباع الديانات والكتب السابقة من يهود ونصارى ،حيث نالهم قسط وافر من الصراع أفضى إلى سفك الدماء ،وقتل الأبرياء ،واستحكام العداوة والبغضاء بين مختلف الفرقاء .

وإلى جانب هذا الصراع كانت البشرية تعج بأنواع الوثنيات والخرافات ،تمخضت عن نتائج وخيمة على الإنسانية ، وقد بعث ρ في جزيرة العرب بين قومٍ وثنيين مشركين فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده ،وكان في الجزيرة أيضاً جيوب يهودية ونصرانية ،فاتصل بهم ودعاهم إلى دين أبيهم إبراهيم υ ، وكتب إلى زعامات أهل الكتاب في العالم آنذاك. وجاء بمشروع لجمع كلمة المؤمنين من أتباع الأنبياء على كلمة الحق التي جاء بها الأنبياء ،فضلاً عن دعوة الوثنيين والمشركين .

وقد خاطب القرآن الجميع ونادى المؤمنين وأهل الكتاب والمشركين ،واضعاً الجميع أمام الحق الموافق للعقل والفطرة. وقد لفت انتباهي كثرة ما ورد في القرآن الكريم من حديث عن أهل الكتاب بصيغ مختلفة ،وأساليب متنوعة في قضايا شتى. منها أسلوب النداء ،حيث ناداهم القرآن بهذا الوصف في إثني عشر موضعاً في القرآن الكريم ،وعند التأمل في هذه النداءات وجدت أنها تتعلق بقضايا عقدية لها أبعادها في علاقة أهل الكتاب بالمسلمين في الماضي والحاضر .

فرغبت في بيان الأبعاد العقدية في نداءات القرآن لأهل الكتاب بين الماضي والحاضر من خلال هذا البحث .

والذي اقتضت طبيعته أن يكون في ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : التعريف بأهل الكتاب .
- المبحث الثاني : خصائص الخطاب القرآني لأهل الكتاب .
- المبحث الثالث : الأبعاد العقدية في نداءات القرآن لأهل الكتاب .
- الخاتمة .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً لما يحبه ويرضاه ...

---

[1] اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم , ابن تيمية ،1 / 63 .

المبحث الأول : " التعريف بأهل الكتاب "

ورد مصطلح " أهل الكتاب " في القرآن الكريم إحدى وثلاثين مرة على سبيل الخبر أو الطلب ،وورد مثل هذا العدد بلفظ " الإيتاء " بتصريفاته المختلفة مثل " أوتوا الكتاب " و " آتيناهم الكتاب " ونحوها.

فمجموع ما ورد في القرآن الكريم من عبارة " أهل الكتاب وما في معناها " ثمانية وسبعين مرة . (1)

هذا الحضور المكثف لمفهوم " أهل الكتاب " في القرآن الكريم يوازيه حضور مهم في الحديث النبوي الشريف ،فقد وردت عبارة أهل الكتاب وما في معناها في الحديث النبوي ما لا يقل عن أربعين مرة (2).

وبجموع ذلك يدل على العناية التي أولاها الإسلام لدعوة أهل الكتاب . كيف لا ،وقد قال تعالى:□□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ (سورة النمل: 76) .

فمن هم أهل الكتاب الذين يتناولهم هذا اللفظ بأخباره وأحكامه ؟

- الأهل في اللغة : لفظ يدل على الاختصاص بالشيء فأهل الرجل : قرابته وأخص الناس به ،وأهل البيت : سكانه ،وأهل الإسلام : من يدين به ،وكذا يقال : أهل العلم ،وأهل الكتاب .: أي من خصوا به (3) .

- أما لفظ الكتاب فيطلق على المكتوب ،وسمي كذلك لضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط (4).

- وفي الاصطلاح : الكتاب : اسم جنس يراد به الكتب السماوية ،وحيثما ذكر في القرآن الكريم التركيب الإضافي " أهل الكتاب " فالمراد به " التوراة والإنجيل أو أحدهما (5) .

وبناءً على ذلك فمصطلح أهل الكتاب يقصد به : أهل التوراة وهم اليهود ،وأهل الإنجيل وهم النصارى ،ومن دان دينهم (6) وإلى هذا ذهب جمهور الفقهاء (7) ،وبه قال أهل التأويل (8) ،حيث اعتبروا أن أهل الكتاب هم اليهود والنصارى بفرقهم المختلفة ومن دان دينهم ،واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ □(سورة الأنعام : 156) .

- وقد ذكر القرآن الكريم تفرق اليهود والنصارى إلى فرق ،ولم يخرجهم هذا الانقسام عن مسمى اليهود والنصارى .

وكذا جاء في السنة ما يحدد أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى، من ذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه من حديث ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ ρ قَالَ: " مَثَلُكُمْ وَمَثَلُ أَهْلِ الكِتَابَيْنِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ أُجَرَاءَ، فَقَالَ:

---

[1] المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ،محمد فؤاد عبد الباقي , 592 – 595 .

[2] المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، مجموعة من المستشرقين , 5 / 533 – 537 .

[3] – لسان العرب لابن منظور , 1/ 253 .وتهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري, 3/ 220 .

[4] المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني , ص 423 .

[5] معجم ألفاظ القرآن الكريم – مجمع اللغة العربية , ص 545 , والمفردات للراغب ص 425 .

[6] المغني ، لابن قدامة , تحقيق : د / التركي , 9 / 546.

[7] الموسوعة الفقهية , وزارة الأوقاف ، الكويت , 7 / 121 .

[8] – تفسير الطبري , للامام : محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : د/ التركي , 10/ 7 .و أحكام أهل الذمة لابن القيم , 1 / 83 .

مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ غُدْوَةَ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ اليَهُودُ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنْ نِصْفِ النَّهَارِ إِلَى صَلاَةِ العَصْرِ عَلَى قِيرَاطٍ؟ فَعَمِلَتِ النَّصَارَى، ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَعْمَلُ لِي مِنَ العَصْرِ إِلَى أَنْ تَغِيبَ الشَّمْسُ عَلَى قِيرَاطَيْنِ؟ فَأَنْتُمْ هُمْ "، فَغَضِبَتِ اليَهُودُ، وَالنَّصَارَى، فَقَالُوا: مَا لَنَا أَكْثَرَ عَمَلًا، وَأَقَلَّ عَطَاءً؟ قَالَ: «هَلْ نَقَصْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ؟» قَالُوا: لاَ،قَالَ: «فَذَلِكَ، فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ»(1)فبين النبي ρأن المقصود بأهل الكتاب: اليهود والنصارى

ويرى الإمام الشافعي أن مصطلح " أهل الكتاب " خاص باليهود والنصارى من بني إسرائيل فقط ،أما من دان بدينهم من العرب وغيرهم فلا يعد كتابياً ، وذكر في ذلك أخباراً (2) .

ولا أرى وجهاً لهذا التقييد ،خاصة أن النبي ρ تعامل مع أهل الكتاب بأديانهم لا بآبائهم ،وقد فصل ابن القيم في هذه المسألة بقوله : " العرب أمة ليس فيها في الأصل كتاب ،و كانت كل طائفة منهم تدين بدين من جاورها من الأمم .. فأجرى رسول الله ρ أحكام الجزية ،ولم يعتبر آباءهم ،ولا من دخلوا في دين أهل الكتاب هل كان دخولهم قبل النسخ والتبديل أو بعده ... وأكثر من أخذ منهم النبي ρ الجزية من العرب من النصارى واليهود والمجوس ،ولم يكشف عن أحد منهم متى دخل في دينهم وكان يعتبرهم بأديانهم لا بآبائهم "(3) .

وفي كلام ابن القيم أيضاً رد على من قال بأن اليهود والنصارى الحاليين ليسوا من أهل الكتاب اعتباراً للتحريف والتغيير الذي طال كتبهم . فليس هناك مبرر لربط استمرار وجود أهل الكتاب بوجود التوراة والإنجيل السماوية ،فقد خاطبهم القرآن بأهل الكتاب ،في الوقت الذي شهد بانحراف عقيدتهم وتبديلهم لما أنزل إليهم ،ولم تسحب عنهم صفة أهل الكتاب .

المبحث الثاني : خصائص الخطاب القرآني لأهل الكتاب

القرآن الكريم هو كلام الله الحكيم، والخطاب القرآني على تنوعه يزخر بدلالات وخصائص متعددة ، فخطاب الله للمؤمنين يختلف عن خطابه لأهل الكتاب، وخطابه لأهل الكتاب يختلف عن خطاب غيرهم من أهل الشرك والكفار لكونهم

لكن العكس هو ما ρأصحاب كتب سماوية في أصلها، وكان المتوقع والحال كذلك أن يكونوا أول الأقوام إيماناً بمحمد حدث ، فقد تفننوا بأنواع المكر والعناد والكفر ، مما جعل خطاب القرآن لأهل الكتاب ذا خصائص ومقاصد تختلف عن غيرهم ، ومن هذه الخصائص :

1- تميز خطاب القرآن لأهل الكتاب بالبسط والتفصيل واعتماده كثيراً في بيان الأمور على المحسوس ،خلافاً لخطاب غيرهم ،وهذا التميز الخطابي يدل على أن المخاطبين من أهل الكتاب ذوو خصوصيات من حيث الفكر والثقافة ومستوى الفهم ،ويدل أيضاً على أن القرآن الكريم وضع المخاطب في الموضع اللائق به ،وخاطبه بما يتناسب معه .

2- تنوع خطاب القرآن لأهل الكتاب وتكامله من حيث دلالة نصوصه في جميع السور التي جاء فيها الخطاب لهم ، بحيث يخرج المتلقي بتصور أقرب إلى المعنى المراد و وهو مالا يتحقق في حال الاجتزاء.

---

[1] صحيح البخاري , كتاب الإجارة 700/2 برقم 2148.

[2] الأم ، للإمام للشافعي , 5/ 10– 11 .

[3] أحكام أهل الذمة لابن القيم , 1/ 188 – 195 بتصرف .

3- تعدد وسائل الخطاب القرآني لأهل الكتاب بحسب الحال والمقام، فباشرهم بالخطاب تارة وغيبهم أخرى، ورغبهم تارة ورهبهم أخرى، وحاورهم وأثنى على المحسن منهم ،ودحض شبهاتهم بالحجة والمنطق ،وأحالهم إلى كتبهم وتاريخهم وإلى مقتضيات العقل مرة أخرى (1).

4- دعوة القرآن لأهل الكتاب من خلال بيان أصول دعوتي موسى وعيسى – عليهما السلام - ،وبيان أن هذه الأصول تتفق مع دعوة محمد ρ ولا شك أن في هذا حث لأهل الكتاب على مراجعة موقفهم من الإسلام وأن يوازنوا بين ما هم عليه الآن من عقائد وشرائع تختلف تمام الاختلاف عما دعا إليه موسى وعيسى – عليهما السلام - .

5- اهتمام القرآن في خطابه لأهل الكتاب ببيان ما وقعوا فيه من انحرافات عقدية نأت بهم عن دعوة الحق التي جاء بها أنبياؤهم – عليهم السلام – وتفنيده لها ،وتأكيد نسبة هذه العقائد الزائفة إليهم حيث صدرها بقوله " وقالوا " و" وقالت اليهود والنصارى " و " إذ قلتم " ، وهذا التصدير بلا شك له فوائد في خطاب أهل الكتاب ، حيث يدل على يقينية القرآن وثباته فيما نسبه إلى أهل الكتاب من عقائد ،ويدل على صدور تلك الأقوال عنهم من خلال التعبير بالفعل الماضي كما يدل على صدق القرآن الكريم وأنه من عند الله فأنى لمحمد ρ النبي الأمي أن يأتي بمثل هذه الدقائق والحقائق،

ومن الفوائد أيضاً تنبيه أهل الكتاب المعاصرين للنبي ρ وللقرآن من بعده إلى يوم القيامة بألا يكونوا أسرى لتلك الأقوال التي صدرت عن أسلافهم ،وأن يعيدوا النظر فيها .

6- ركز القرآن الكريم في خطابه لأهل الكتاب على بيان حاجتهم الماسة إلى الرسالة الخاتمة التي بعث بها محمد ρ، والتي هي كفيلة بتقويم اعوجاجهم وإصلاح فسادهم وردهم إلى صراط الله الذي ضلوا عنه أزمنة طويلة عانوا خلالها الحيرة وتخبطوا في ظلمات الشرك ،وأضحى من المستحيل أن يعودوا إلى دعوة الحق التي جاء بها موسى وعيسى – عليهما السلام - بعدما حرفوا التوراة والإنجيل ،وبدلوا العقائد والشرائع ،قال سبحانه : □ڃ چ ج ج ڃ ڃ چ چ چحتى ڃ چ □ (سورة البينة : 1) .

7- الإنصاف والعدل في خطاب القرآن لأهل الكتاب وحديثه عنهم ،حيث نجد القرآن الكريم لا يصدر الأحكام العامة إلا فيما كان مجمعاً عليه عندهم ،دون ما كان مختصاً بقلة منهم ،بالإضافة إلى تصنيفهم حسب ما هم عليه في الواقع ،وبيان ما عندهم من الحق والصفات الحميدة ،ووجوب العدل والإنصاف في التعامل معهم ،وصيانة الحقوق العامة ،رغم ما بينه القرآن من عداوتهم للمسلمين وكيدهم للإسلام وأهله . (2)

8- أن القرآن الكريم في خطابه لأهل الكتاب استخدم المناهج العلمية المختلفة في تناول ما هم عليه :

- فاستخدم المنهج الوصفي وذلك فيما ذكره من مزاعمهم وأقوالهم ،ووصف لهم الذي انتهوا إليه بسبب تلك العقائد .
- واستخدم المنهج التاريخي أو الاستردادي فاستدل على بطلان عقائدهم بحقائق تاريخية لا تقبل الإنكار أو المناقشة.
- واستخدم المنهج التحليلي في بيان أسباب كفرهم والكشف عن المصادر الحقيقية التي استقوا منها عقائدهم .

---

[1] خطاب اهل الكتاب في القرآن الكريم ، احمد لطف البريهي ،رسالة ماجستير ، جامعة عدن ، 2008م . بتصرف

[2] منهج القرآن الكريم في دعوة أهل الكتاب ، ا.د. علي سيد الفريسي ، ص 3-15 بتصرف .

- كما استخدم القرآن الكريم المنهج النقدي الذي يعتمد على البراهين العقلية والأدلة المنطقية ،التي لا يجد العقل حيالها مناصاً من الإذعان والتسليم .

ويظهر لنا من خلال ما سبق ذكره من خصائص الخطاب القرآني لأهل الكتاب الشمول والسهولة واليسر، ومخاطبة العقل واستشارة العاطفة، والالتزام بالأدب الرفيع في النقد، واستخدام أسلوب التخلية ثم التحلية، حيث يذكر عقائدهم وانحرافاتهم، ويحكم عليها بالبطلان، ثم يأتي بالعقيدة الصحيحة ويدعوهم إلى التمسك بها ،في حسم وتلطف مع حرصه على دعوتهم إلى التوبة والانتهاء عما هم عليه من ضلال وفساد .

المبحث الثالث : الأبعاد العقدية في نداءات القرآن لأهل الكتاب .

باستقراء الآيات التي ورد فيها النداء لأهل الكتاب يمكننا تقسيمها تبعاً للأبعاد العقدية التي عالجتها إلى ست قضايا ، يمكن بيانها في المطالب الآتية :

المطلب الأول : حاجة أهل الكتاب إلى بعثة محمد ρ .

بعث الله نبيه محمداً ρ بالرسالة الخاتمة للبشرية جمعاء ،بما فيهم أهل الأديان السابقة ،وعند ذلك استكثر أهل الكتاب أن يدعوهم إلى الإسلام نبي من الأميين الذين كانوا يتعالون عليهم من قبل ويتعالمون لأنهم أهل كتاب وهؤلاء أميون .

فجاء النداء الإلهي لأهل الكتاب يسجل عليهم أنهم مدعوون إلى الإسلام والإيمان بهذا الرسول ونصره وتأييده ،بناءً على الميثاق الذي أخذه الله تعالى على الأنبياء قبله ،ومن ثم فلا مجال لإنكار رسالته ولا مجال للإدعاء بأن رسالته ρ خاصة بالعرب دون أهل الكتاب فقال سبحانه : □ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ چ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ □ (سورة المائدة: 15 – 16) ." فهو رسول الله إليكم ،ودوره معكم أن يبين لكم ويوضح ويكشف ما تواطأتم على إخفائه من حقائق كتاب الله الذي معكم ،سواءً في ذلك اليهود والنصارى ،فقد أخفى النصارى الأساس الأول للدين : التوحيد ،وأخفى اليهود كثيراً من أحكام الشريعة كما أخفوا جميعاً خبر بعثة النبي الأمي □ ڃ چ چ چ چ چ چ□ (سورة الأعراف : 157).كما أنه ρ يعفو عن كثير مما أخفوه،أو حرفوه مما لم يرد به شرعه ،فقد نسخ الله من أحكام الكتب والشرائع السابقة ما لم يعد له عمل في المجتمع الإنساني مما كانت له وظيفة وقتية في المجتمعات الصغيرة الخاصة التي بعث إليها الرسل من قبل ،ولفترة محدودة – في علم الله – من الزمان قبل أن تجيء الرسالة الشاملة الدائمة وتستقر ،وقد أكملها الله وأتم بها نعمته ورضيها للناس ديناً ،فلم يعد فيها نسح ولا تبديل ولا تعديل ويبين لهم طبيعة ما جاء به هذا الرسول ،ووظيفته في الحياة البشرية ،وأثر ذلك في حياة الناس . □ چ چ چ چ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ڑ ڑ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ □ (سورة المائدة 15 – 16) .

وليس أدق ولا أصدق ولا أدل على طبيعة هذا الكتاب(القرآن) وعلى طبيعة هذا المنهج (الإسلام) من أنه (نور) "[1]

وبعد أن يستعرض السياق كفر من قال بألوهية عيسى υ ،ويرد عليهم ببيان حقيقة عيسى υ وأمه ،وعجزهم أمام قدرته سبحانه ،يعرض السياق دعوى أهل الكتاب – يهوداً ونصارى– بأنهم أبناء الله وأحباؤه ويرد مقولتهم بالحجة الفعلية " قل فلم يعذبكم بذنوبكم " ،ويعود السياق مرة أخرى بتكرار النداء الموجه لأهل الكتاب في القضية نفسها – حاجتهم إلى بعثة

---

[1] في ظلال القرآن ، سيد قطب, 2/ 861-862 .

النبي محمد ρ ليقطع بذلك حجتهم ومعذرتهم ويقفهم أمام الحقيقة وجهاً لوجه . □ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ □(سورة المائدة : 19) . " وبهذه المواجهة الحاسمة ،لا تعود لأهل الكتاب جميعاً حجة في أن هذا الرسول الأمي لم يرسل إليهم ،ولا تعود لهم حجة في أنهم لم ينبهوا ،ولم يبشروا ولم ينذروا ،في مدى طويل يقع فيه النسيان والانحراف ... فقد جاءهم الآن بشير ونذير "(1) .

وهكذا يكشف الله لأهل الكتاب انحرافاتهم عن دين الله الصحيح ،الذي جاءتهم به رسلهم من قبل ،ويقرر الاعتقاد الذي يرضاه الله من المؤمنين ،ويبطل حجتهم في موقفهم من النبي الأمي ،ويقطع عليهم الطريق في الاعتذار يوم الدين ولم يقف الأمر عند هذا الحد في هذه القضية ،بل يأتي نداءٌ أكثر تهديداً لأهل الكتاب ،وهو قوله تعالى : □ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ □ (سورة النساء : 47) .

ويتمثل البعد العقدي في هذه القضية في عدة أمور :

أولاً : أن حال أهل الكتاب قبل بعثة النبي ρ قد آل إلى نوع من الالتباس والخلاف , وإخفاء الحقائق , وهذا أمر ثابت تاريخياً يدركه علماء اللاهوت , كما يحفظه علماء التاريخ , فكان لابد للمنضوين تحت دين الله , المنتمين إلى أنبيا ء الله أن يخرجوا من هذه الدوامة , وينفكوا من هذه الأزمة , ببيان شافٍ كافٍ من عند الله , وقد كان ذلك , قال سبحانه: □ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ □ (سورة البينة:1-3) وقال سبحانه:□ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □(سورة النمل: 76).

وقد كانت بعثة محمد ρ رحمة للبشرية عموماً ولأهل الكتاب خصوصاً فقد جاء ليرفع الالتباس , ويحسم الخلاف , في قضايا طالما أهرقت الدماء بسببها , وتبودلت اللعنات من جرَّائها , وأصدرت قرارات الحجب والحرمان بين مختلف الفرقاء نتيجة لها (2) .

ثانياً : أن هذا النبي المنتظر بعث بالعفو , والصفح , والرحمة , والتخفيف , وكان يقول لجيرانه من اليهود في المدينة : " يا معشر اليهود : أروني اثني رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله , وأني محمداً رسول الله , يحبط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي غضب عليه "(3) , لقد كان عرضاً مغرياً , وفرصة سانحة لأهل الكتاب أهتبلها بعضهم فاغتبط بنعمة الإيمان وسماحة الإسلام , وأبى آخرون فبقوا مرتهنين لتعاليم محرفة , اختلط الحق فيها بالباطل .

ثالثاً : دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان والهدى المتمثل فيما جاء به محمدٌ ρ , النبي الذي بشرت به كتبهم وأنبياؤهم من قبل, والتي يجدون دلائل صدقه ظاهرة جلية بمنزلة النور الذي يكتسح الظلمات , وبمنزلة البيان الذي لا لبس فيه فلا يضل عنه عقل سليم " نورٌ وكتابٌ مبين ", والناظر المتأمل بإخلاص وتجرد يستيقن أن المضامين الإيمانية والتشريعية التي جاء بها محمد ρ من عند الله , متناغمة مع ما جاء به أنبياء الله , وليست فكراً قومياً , أو مشروعاً إقليمياً , أو فلسفة عقلية , بل هي دعوة ربانية تستوعب الجوانب الإنسانية , وتخاطب عموم البشرية , وهي في الوقت ذاته تقدم دليلاً محفوظاً , يمكن لكل أحد في كل حين , في كل مكان أن يفحصه ويتثبت منه , وهو " الكتاب المبين " أي : القرآن , الذي فيه دلائل

---

[1] المصدر السابق , 2/ 867 .

[2] يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء , د . أحمد عبد الرحمن القاضي , كتاب مجلة البيان رقم (123) لعام 1431هـ ، ص 58 .

[3] صححه الأرناؤوط انظر : مسند الإمام احمد بن حنبل , تحقيق : الأرناؤوط , 409/39 برقم 23984.

الصدق والتصديق لما سبقه من الكتب السماوية , يتبين من خلاله أن من جاء به نبي حق , بعث ليجدد ما اندرس من دين الله , ويصحح للبشرية انحرافها عنه.

رابعاً : أن الفترة التي أعقبت رفع المسيح υ - والتي تزيد على ستة قرون – آلت فيها البشرية من أهل الكتاب وغيرهم إلى حالٍ من الانحراف لا توصف , فكان مقتضى الحكمة الإلهية والرحمة الربانية , أن ينقذ البشرية من هذا المأزق , ببعثة نبي يخلصهم من التخبط العقدي والانحراف الخلقي والاجتماعي , ولم تكن بعثته ρ مفاجئة لأهل الكتاب , بل كانت متوقعة عندهم , نطقت بها الأسفار وبشرت بها النصوص التي بأيديهم , ومن ثم فقد قطعت حجتهم وليس لهم أن يقولوا ما جاءنا من بشير ونذير , فقد جاءهم بشير ونذير .

خامساً : إضعاف كيد أهل الكتاب في الصف المسلم , وإنارة الطريق للجماعة المسلمة بحقيقة ما عليه أهل الكتاب , وموقفهم من الرسالة الخاتمة .

المطلب الثاني : إبطال دعوة أهل الكتاب في وراثة الدين الحق ،وبطلان ما هم عليه من الدين المحرف

يقرر القرآن الكريم في أكثر من موضع حقيقة الصلة بين الأنبياء والرسل ،وأنهم موكب كريم ،يسلم السابق منهم للاحق، ويبشر به ، ويعد بنصره ،كما قال تعالى : □ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ □ (سورة آل عمران: 81) .

وفي ظل هذا الميثاق الساري يقرر أن الذي يبتغي غير دين الله – الإسلام – الذي بعث به أنبياءه ،إنما يخرج على نظام الكون كله □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ (سورة آل عمران : 83) .

ولما كان أهل الكتاب يدعون أنهم ورثة الحنيفية الأولى ويحتكرون عهد الله مع إبراهيم υ أن يجعل في بيته النبوة ويكذبون دعوى النبي ρ في أنه على دين إبراهيم υ ،ويشككون الناس في هذه الحقيقة ،جاء النداء الإلهي لأهل الكتاب ليبين حقيقة مجادلتهم في هذه القضية ،ويكشف زيف دعواهم ومخالفتها للتاريخ والعقل معاً .

□ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ □ (سورة آل عمران : 65) .

فالآية تندد بأهل الكتاب ،وتكشف مراءهم الذي لا يستند إلى دليل ،فإبراهيم υ سابق على التوراة والإنجيل ،فكيف إذاً يكون يهودياً أو نصرانياً ؟ إنها دعوى مخالفة للعقل ،تبدو مخالفتها بمجرد النظرة الأولى إلى التاريخ ،ويمضي التنديد بهم وإسقاط قيمة ما يدلون به من حجج ،وكشف تعنتهم وقلة اعتمادهم على منهج منطقي سليم في الجدل والحوار □ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ □ فهو سبحانه الذي يعلم حقيقة التاريخ البعيد ،ويعلم حقيقة الدين الذي نزله على عبده إبراهيم υ وقوله في ذلك هو الفصل : □ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ □ (سورة آل عمران : 67) .

فيؤكد ما قرره من قبل ضمناً من أن إبراهيم υ ما كان يهودياً ولا نصرانياً ،وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ،ويقرر أنه كان مائلاً عن كل ملة إلا الإسلام فقد كان مسلماً بالمعنى الشامل للإسلام . يقول سيد قطب – رحمه الله - : " وقوله تعالى □ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ □ بعد قوله □ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ □ يشير إلى عدة لطائف هي :

أولاً : أن اليهود والنصارى - الذين انتهى أمرهم إلى تلك المعتقدات المنحرفة – مشركون ،ومن ثم لا يمكن أن يكون إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ،ولكن كان حنيفاً مسلماً .

وثانياً : أن الإسلام شيء والشرك شيء آخر فلا يلتقيان ،الإسلام هو التوحيد المطلق بكل خصائصه ومقتضياته ،ومن ثم لا يلتقي مع لون من ألوان الشرك أصلاً .

وثالثاً : يشير إلى إبطال دعوى المشركين من قريش أنهم على دين إبراهيم υ فهو حنيف مسلم ،وهم مشركون .

وما دام أن إبراهيم υ كان حنيفاً مسلماً ،فليس لأي من اليهود أو النصارى أو المشركين أيضاً أن يدعي وراثته ،ولا الولاية على دينه وهم بعيدون عن عقيدته ،.. ولما كانت العقيدة وحدها هي الوشيجة التي يتلاقى عليها الناس في الإسلام، يقرر سبحانه □ ۉ ۆ ۋ ې ې ۑ ۑ □ □ □ □ □ □ □ □ (سورة آل عمران : 68) .

فالذين اتبعوا إبراهيم υ في حياته وساروا على منهجه هم أولياؤه ، ثم هذا النبي الذي يلتقي مع إبراهيم في الإسلام بشهادة الله أصدق الشاهدين ، ثم الذين آمنوا بهذا النبي ρ فالتقوا مع إبراهيم υ في المنهج والطريق "[1] .

ونخلص مما سبق إلى أن الله تعالى دحض في الآية السابقة دعوى أهل الكتاب في وراثة الدين الحق ،والانتساب إلى الحنيفية ملة إبراهيم υ ،وقرر أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم υ هم أتباعه في زمنه ثم خاتم النبيين ρ وأمته من بعده ومن ثم فلم يعد لما عليه أهل الكتاب من دين أي قيمة في ميزان الحق ،وهو ما يشير إليه النداء الإلهي في قوله تعالى : □ گ گ ڳ ڳ گ گ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڼ ڼ ۀ ۀ ہ ہ ۂ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ڭ □ (سورة المائدة : 68) .

والناظر في هذا النداء الإلهي لأهل الكتاب يجد أن الله تعالى في الآية التي سبقت النداء قد كلف الرسول ρ أن يبلغ ما أنزل إليه من ربه ،وإن لم يفعل فما بلغ رسالته ،وأن لا يجعل لأي اعتبار حساباً وهو يصدع بالحق ،ويواجه أهل الكتاب بكل صراحة بحقيقة ما هم عليه ،وبحقيقة صفتهم التي يستحقونها وهي " أنهم ليسوا على شيء من الدين ولا العقيدة ولا الإيمان ذلك أنهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم ،ومن ثم فلا شيء مما يدعونه لأنفسهم من أنهم أهل كتاب وأصحاب عقيدة وأتباع دين ... لأن " الدين " ليس كلمات تقال باللسان ،وليس كتباً تقرأ وترتل ،وليس صفة تورث، إنما الدين منهج حياة يشمل : العقيدة المستترة في الضمير ، والعبادة المتمثلة في الشعائر ،وفي إقامة نظام الحياة كلها على أساس هذا المنهج .. ولما لم يكن أهل الكتاب يقيمون الدين على قواعده هذه فقد كلف الرسول ρ أن يواجههم بأنهم ليسوا على شيء . وإقامة التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم مقتضاها الأول : الدخول في دين الله الذي جاء به محمد ρ ،فقد أخذ الله عليهم الميثاق أن يؤمنوا بكل رسول وينصروه ومنهم محمد ρ الذي وصفه لهم في التوراة والإنجيل ... فهم لا يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم – سواءً كان المقصود به القرآن الكريم – أم الكتب الأخرى التي أنزلت عليهم كالزبور – إلا بدخولهم في الدين الجديد الذي جاء به محمد ρ ... وهذا المفهوم يعتبر من " المعلوم بالدين بالضرورة " ،فمن بديهيات هذه العقيدة أن محمداً ρ هو خاتم النبيين وأنه أرسل إلى البشر كافة ،وأن الناس جميعاً - على اختلاف مللهم ونحلهم وأديانهم وأوطانهم – مدعوون إلى الإيمان بما جاء به ،وفق ما جاء به في عمومه وتفصيلاته ،وأن من لا يؤمن بما جاء به إجمالاً وتفصيلاً فهو ضال لا يقبل الله منه ما كان عليه من دين قبل هذا الدين .... وهذه الحقيقة لا يجوز

---

[1] في ظلال القرآن – سيد قطب , 1/ 412 , بتصرف .

للمسلم الحق أن يجمجم فيها أمام ضخامة الواقع الجاهلي الذي تعيش فيه البشرية ،ولا أن يغفل عنها في علاقته بأهل الملل والنحل " (1) .

ومن خلال التأمل في النداءين السابقين يمكن استخلاص جملة من الأبعاد العقدية المستفادة منها وهي :

أولاً : بطلان دعوى " التقريب بين الأديان " كما يزعم دعاتها ،لأن ما عليه أهل الكتاب فضلاً عن غيرهم لم يعد له صلة بالدين الحق أو بالملة الإبراهيمية التي يزعمون الاجتماع عليها ،فقد أبطل الله دعوى أهل الكتاب في انتسابهم إلى ملة إبراهيم أو ادعاء وراثة دينه (2).

ثانياً : ضلال من يرى أن الحوار مع أهل الكتاب ينبغي أن يقوم على الاعتراف بما عندهم ،وعدم ادعاء امتلاك الحقيقة والحرص على الالتقاء على القواسم المشتركة إلى آخر ما يؤصل له دعاة الحوار بين الأديان بعيداً عن المنهج القرآني في هذا الباب . فالقرآن يقرر وجوب الجهر لـ (الآخر) بحقيقة ما هم عليه ،وإقامة الحجة عليهم بدون مجاملة ولا مداهنة . فهو قد يؤذيهم إن لم يبين لهم أنهم ليسوا على شيء وأنه يدعوهم إلى غير ما هم عليه ،وأن يعرفهم أين هم من الحق ڑ □ ڑ ک ک ڪ ڪ گ گ گ گگ □ (الأنفال : 42) .

وحين لا يبين الداعية عن الفارق الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم إليه من الحق .. مراعاة للظروف والملابسات وخوفاً من مواجهتهم ، فإنه يكون قد خدعهم وآذاهم !" إن التلطف في دعوة الناس إلى الله ينبغي أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية ،لا في الحقيقة التي يبلغهم إياها ،إن الحقيقة يجب أن تبلغ إليهم كاملة ،أما الأسلوب فيتبع المقتضيات القائمة ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة"(3).

ثالثاً : أن حقيقة التدين والإيمان تقتضي إقامة الدين كاملاً كمنهج حياة للبشر في كل شؤونهم ،ومن ثم فدعوى حصر الدين في بعض العقائد والشعائر كما تدعوا إليه " العلمانية " يناقض حقيقة الدين الذي بعث الله به أنبياءه – عليهم السلام – فقد واجه القرآن أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيء من الدين مع أنهم يدعون الإيمان ويقرؤون التوراة والإنجيل ولكن لما لم تكن حياتهم قائمة على " الدين " الحق الذي جاء به الأنبياء لم يعترف الله لهم بشيء مما هم عليه . وهذا ما ينبغي أن يفهمه كل مسلم أيضاً ،أنه ما لم يقم الدين الذي جاء من عند الله كاملاً فليس على شيء من الدين .

رابعاً : أن مواجهة أهل الكتاب بحقيقة ما هم عليه ستزيد كثيراً منهم طغياناً وكفراً ،ومع ذلك لا يمنع المسلم من مواجهتهم بها ولا يخشى مما يترتب على ذلك من آثار، وان تكون المفاصلة بينه وبين قوى الباطل والجاهلية بناءً عليها

المطلب الثالث: كفر أهل الكتاب وعداؤهم للحق.

في سورة آل عمران ورد النداء لأهل الكتاب في موضعين يصفهم بالكفر ،ولبس الحق والباطل ،وكتمان الحق، والصد عن سبيل الله .

أما الموضع الأول فقوله تعالى □ي ي □ □ □ □ □ □ □ □ ٱ ب ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ ڀ □ (آل عمران : 70 – 71) .

---

[1] المصدر السابق 2/ 937 وما بعدها بتصرف.

[2] معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم , د / عبد الوهاب الديلمي , ص 187 بتصرف

[3] في ظلال القرآن ، سيد قطب , 2/ 941 , بتصرف .

وأما الموضع الثاني فقوله تعالى □ۋ و ۆ ۋ ې ې ﯿ ﯿ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □
□ □□ □ ى ى ێ ێ□(آل عمران : 98 – 99)

وفي كلا الموضعين يأتي النداء بعد بيان الله تعالى لحقد أهل الكتاب وكشف مكرهم وألاعيبهم القائمة على الرغبة في إضلال المسلمين.

- أما النداء في الموضع الأول فقد جاء بصيغة مباشرة " يا أهل الكتاب " وفيه بيان لحقيقة حال أهل الكتاب وما هم عليه
□ێ ێ □ □ □ □ □ □ □ ٱ ٻ ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ ڀ □ (آل عمران : 70– 71)

يقول سيد قطب : " ولقد كان أهل الكتاب وقتها - وما يزالون حتى اليوم - يشهدون الحق واضحاً في هذا الدين، سواءً منهم المطلعون على حقيقة ما جاء في كتبهم عنه من بشارات وإشارات، والتي صرح بها بعضهم وبعضهم أسلم بناءً عليها .وسواءً كذلك غير المطلعين، ولكنهم يجدون في الإسلام من الحق الواضح ما يدعو إلى الإيمان ..غير أنهم يكفرون..لا لنقص في الدليل، ولكن للهوى والمصلحة والتضليل، والقران يناديهم" يا أهل الكتاب" لأنها الصفة التي كان من شأنها أن تقودهم إلى آيات الله وكتابه الجديد ..ويناديهم مرة أخرى ليفضح ما يقومون به من لبس الحق بالباطل لإخفائه وكتمانه وتضييعه في غمار الباطل، على علمٍ وعن عمدٍ وفي قصدٍ ، وهو أمر مستنكر قبيح ! وهذا الذي ندد الله به من أعمال أهل الكتاب حينذاك هو الأمر الذي درجوا عليه من وقتها حتى اللحظة الحاضرة ، فهذا طريقهم على مدار التاريخ . بدأ اليهود منذ اللحظة الأولى، ثم تابعهم الصليبيون وفي خلال القرون المتطاولة دسوا في التراث الإسلامي مالا سبيل إلى كشفه إلا بجهد القرون، ولبسوا الحق بالباطل في هذا التراث كله- اللهم إلا هذا الكتاب المحفوظ الذي تكفل الله بحفظه أبد الآبدين- والحمد لله على فضله العظيم " (1) .

- أما في الموضع الثاني فيلقن الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى أهل الكتاب بالتنديد والتهديد على موقفهم من الحق الذي يعلمونه، ثم يصدون عنه ، ويكفرون بآيات الله، وهم شهداء على صحتها فيقول □ ۋ و ۆ ۋ ې ې ﯿ ﯿ □ □ □ □ " وأول ما يتركه هذا النداء من أثر : هو مجابهة أهل الكتاب بحقيقة موقفهم، ووصفهم بصفتهم التي يداروها بمظهر الإيمان والتدين ، بينما هم في حقيقتهم كفار، فهم يكفرون بآيات الله القرآنية، ومن يكفر بشيء من كتاب الله فقد كفر بالكتاب كله ، ولو أنهم آمنوا بالنصيب الذي معهم لآمنوا بكل رسول جاء من عند الله بعد رسولهم، فحقيقة الدين واحدة، من عرفها عرف أن كل ما يجيء به الرسل من بعد حق ، وأوجب على نفسه الإسلام لله على أيديهم ، وهي حقيقة من شأنها أن تهزهم وأن تخوفهم عاقبة ما هم فيه .

ثم إن المخدوعين من الجماعة المسلمة بكون هؤلاء الناس أهل كتاب ، يسقط هذا الخداع عنهم ، وهم يرون الله سبحانه وتعالى يعلن حقيقة أهل الكتاب هؤلاء ، ويدحضهم بالكفر الكامل الصريح ، فلا تبقى بعد هذا ريبة لمستريب " (2) .

ثم يسجل الله تعالى عليهم معرفتهم بالحق الذي يكفرون به ، ويصدون الناس عنه بقوله □ □ □□ □ مما يجزم بأنهم على يقين من صدق ما يكذبون به ، ومن صلاح ما يصدون الناس عنه ، وهو أمر قبيح مستنكر .

---

[1] في ظلال القرآن ، سيد قطب ، 1/ 414 .

[2] في ظلال القرآن ، سيد قطب 1/ 436 .

وفي قوله تعالى □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ □ لفتة ذات مغزى كبير ،إن سبيل الله هو الطريق المستقيم ،وما عداه فهو عوج ،وحين يصد الناس عن سبيل الله فإن الأمور كلها تفقد استقامتها وموازينها المستقيمة ولا يكون في الأرض إلا الفساد والعوج الذي لا يستقيم .

والآيات السابقة تشير إلى بعض الأبعاد العقدية المستفادة من هذه النداءات ،ومنها :

أولاً: تقرير القرآن لحقيقة كفر أهل الكتاب، وخروجهم عن دين الله الحق ؛ وهو أمر معلوم من الدين بالضرورة ، ولهذا ذكر أهل العلم أن من نواقض الإسلام: عدم تكفير أهل الكتاب، أو الشك في كفرهم ،أو تصحيح ما هم عليه من الدين"[1]

ثانياً: أن كفر أهل الكتاب لم يكن عن جهل بالدين الحق، بل كان عن علمٍ ويقينٍ ومعرفةٍ ، حملهم على ذلك كبرهم وحسدهم للمسلمين .

ثالثاً: التلازم بين الكفر بالحق وعدائه ولبسه بالباطل وصد الناس عنه، وهي حقائق تتضح من خلال السياق القرآني في ندائه لأهل الكتاب بهذا الخصوص فقد حملهم كفرهم بالدين الحق على السعي إلى لبسه بالباطل ، وما تقرره الآيات يظهر واضحاً جلياً في الواقع ؛ فقد حاول أهل الكتاب (اليهود والنصارى) منذ فجر الإسلام وما يزالون الدس والتلبيس في التفسير القرآني عن طريق إغراقه بالإسرائيليات ، وكذا الدس في الحديث النبوي حتى قيض الله له رجاله الذين حققوه وحرروه من هذا الدس إلا ما ندر ... ودسوا في الرجال والتاريخ الإسلامي وأحداثه، وما يزالون يدسون تلاميذ المستشرقين في كثير من المناصب القيادية في العالم الإسلامي ليؤدوا من الأعمال ما لا يملك أهل الكتاب القيام بها بأنفسهم ، وما يزال مسلسل اللبس والدس مستمراً في صور متعددة لخلخلة العقيدة والشريعة على حدٍ سواء .

رابعاً: أن الفساد الظاهر اليوم في الأرض جميعاً هو في الغالب ثمرة جهد أهل الكتاب في لبس الحق بالباطل وصد الناس عن سبيل الله ومنهجه القويم ، الأمر الذي أدى إلى اعوجاج الحياة وظهور الفساد في كل مناحيها : فساد التصورات، وفساد الضمائر، وفساد الأخلاق، وفساد السلوك، ، وفساد المعاملات، وفساد روابط البشر فيما بينهم ،وروابطهم مع الكون الذي يعيشون فيه.

المطلب الرابع : نقمة أهل الكتاب على المسلمين وسببها

المتأمل في منهج القرآن الكريم يجد أنه قائم على تربية وعي المسلمين بحقيقة أعدائهم، وحقيقة المعركة الذي يخوضونها معهم، وهي معركة العقيدة ، يستوي في ذلك أهل الكتاب وغيرهم من الأعداء.

وفي آيات عدة يبين الله تعالى للمؤمنين بواعث المعركة في نفوس أعدائهم ،وطبيعة الأعداء في حربهم للإسلام وأهله في كل زمان ومكان ، ويتوجه الخطاب القرآني إلى الرسول ρ ليواجه أهل الكتاب فيسألهم: ماذا ينقمون من المسلمين؟ فيقول سبحانه: □ ٺ ٻ ٺ ٿ ٿ ٿ ٽ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ ڦ ڦ ج □ (سورة المائدة : 59) .

وهذا السؤال الذي وجه الله رسوله إلى توجيهه لأهل الكتاب هو من ناحية سؤال تقريري لإثبات ما هو واقع بالفعل منهم ، وكشف حقيقة البواعث التي تدفع بهم إلى موقفهم من الجماعة المسلمة ،وهو من ناحية سؤال لاستنكار هذا الواقع منهم ،

---

[1] نواقض الإسلام , محمد بن عبد الوهاب مع الشرح لسليمان العلوان , دار المسلم ، الرياض , ط6 , 1996م , ص 26 .

واستنكار البواعث الدافعة عليه .. وهو في الوقت ذاته توعية للمسلمين وتنفير لهم من موالاة القوم وتقرير لما سبق في النداءات الثلاثة قبله من نهي عن موالاة أهل الكتاب ، فليس عندنا شيء ينكره أهل الكتاب ويكرهوننا لأجله إلا إيماننا الصادق بالله ،وتوحيده وتنزيهه ،وإثبات الكمال له ،وإيماننا بما أنزل علينا وبما أنزل من قبل على رسله (1) .

إن أهل الكتاب لم يكونوا ينقمون على المسلمين في عهد النبي ρ - وهم لا ينقمون على طلائع البعث الإسلامي - إلا أن هؤلاء المسلمين يؤمنون بالله وما أنزل الله إليهم من قرآن .و هذه الحرب الشعواء التي لم تضع أوزارها قط .. منذ أن قام للمسلمين كيان في المدينة وتميزت لهم شخصية وأصبح لهم وجود ونظام مستقل في ظل منهج الله الفريد " (2) .

ولأن أهل الكتاب فاسقون منحرفون عما أنزله الله إليهم ،وآية فسقهم أنهم لا يؤمنون بالرسالة الأخيرة المصدقة لما بين أيديهم ... ومن ثم فهم لا يحبون المستقيمين من المسلمين وهذه الحقيقة تقررها الآيات القرآنية الكثيرة بصورة قطعية مثل قوله تعالى : □ ٱ ٻ ٻ ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ □ (سورة البقرة : 120) وقوله تعالى: □ ڃ چ چ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ □(سورة النساء: 89). وقوله تعالى □ ک ک ک ک گ گ گ گ ڳ ڳ ڳ ڱ ڱ ڱ ڱ ں ں ڻ ڻ ڈ □ .

وعداء أهل الإيمان ليس محصوراً على أهل الكتاب فقط ،بل كل كافر ينقم من المؤمن إيمانه ،كما قال سبحانه في قصة سحرة آل فرعون : □ ڃ چ چ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈڈ □ (الأعراف: ١٢٦)، وقوله تعالى في قصة أهل الأخدود : □ ڤ ڤ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ ڃ □ (البروج: ٨) .

هذه الحقيقة التي يقررها الله سبحانه في مواضع كثيرة من كلامه الصادق المبين هي التي يريد تمييعها وتلبيسها وتغطيتها أو إنكارها اليوم كثيرون من أهل الكتاب ،ومن لف لفهم من دعاة التقريب والعلمنة ،تحت مسمى (التقارب الديني) و(التقريب بين الأديان) وغيرها من الشعارات التي تصور الصراع بين المسلمين وأهل الكتاب بعيداً عن الأساس العقدي ، وربما أكثروا من الاستدلال على ذلك ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تأمر المسلمين أن يحسنوا معاملة أهل الكتاب ويغفلون التحذيرات الحاسمة في النصوص الشرعية عن موالاتهم ، والتقريرات الواعية عن بواعثهم ،والتعليمات الصريحة عن خط معركتهم مع المسلمين ،وفرق كبير بين العدل والإحسان في المعاملة ،وبين الولاء والمناصرة والالتقاء مع الأعداء .والابعاد العقدية المستفادة من هذه الآية هي

1- أن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة وليست شيئاً آخر على الإطلاق ،وأن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان ،ولا يسخطون منهم إلا العقيدة .. إنها ليست معركة سياسية ولا اقتصادية ولا عنصرية ولو كانت شيئاً من هذا لسهل وقفها وحل إشكالها ،ولكنها في صميمها معركة عقيدة – إما كفر وإما إيمان ،إما جاهلية وإما إسلام . وليس هذا موقف أهل الكتاب فقط ،بل هو موقف كل الكافرين بهذا الدين ،فقد رأينا المشركين في مكة يعرضون على النبي ρ المال والحكم والمتاع في مقابل شيء واحد : أن يدع معركة العقيدة وأن يداهن في الأمر ،ولو أجابهم – حاشاه – إلى شيء مما أراد ما بقيت بينهم وبينه معركة على الإطلاق... وهذا ما يجب أن يستيقنه المؤمنون حيثما واجهوا عدواً لهم فإنه لا يعاديهم إلا لهذه العقيدة (3) .

---

[1] تفسير المنار , محمد رشيد رضا , 6/ 382 .

[2] في ظلال القرآن , سيد قطب , 2/ 923 – 924 .

[3] المهذب في تفسير جزء عم , علي بن نايف الشحود

2- وجوب إخلاص الولاء لله ورسوله وجماعة المؤمنين بناءً على معرفة طبيعة معركتهم مع الأعداء ،فلا يتحقق الإيمان بالعقيدة في النفوس والواقع إلا بالمفاصلة الكاملة بين حملتها وبين سائر المعسكرات التي لا ترفع رايتهم ، وأن يستيقنوا أن بعضهم أولياء بعض في حرب الجماعة المسلمة والعقيدة الإسلامية على السواء "[1] .

3-ان التعقيب في نهاية الآية بقوله ☐ ڨ ڨ ج ☐ يدل على أن الفسق يحمل صاحبه على النقمة على المستقيم , وهي قاعدة نفيسة واقعية تثبتها هذه اللفتة القرآنية ،إن الذي يفسق عن الطريق وينحرف لا يطيق أن يرى المستقيم على النهج الملتزم إن وجوده يشعره دائماً بفسقه وانحرافه, ومن ثم يكرهه وينقم عليه استقامته ويسعى جاهداً للقضاء عليه فهي قاعدة مطردة تتجاوز موقف أهل الكتاب من المسلمين إلى موقف كل فاسق من كل عصبة مستقيمة" [2].

ومن ثم فمن الغفلة أن يظن أهل الإيمان والحق أنهم متروكون من الباطل وأهله , وأنهم يملكون تجنب المعركة , وأنه يمكن أن تقوم هناك مصالحة ومهادنة ! وخير لهم أن يستعدوا للمعركة بوعي وعدة من أن يستسلموا للوهم والخديعة .

المطلب الخامس : النهي عن الغلو في الدين .

الغلو في اللغة : يدل على مجاوزة الحد والقدر , قال ابن فارس : " الغين واللام والحرف المعتل " : أصل صحيح يدل على ارتفاع ومجاوزة حد [3] . وقال الفيومي : " وغلا في الدين غلواً من باب قعد : تصلب وتشدد حتى جاوز الحد , وفي التنزيل : ☐ ب ٻ پ ☐ (سورة النساء : 171) وغالى في أمره مغالاة : بالغ [4] .

وأما الغلو في الاصطلاح فقد عرفه الحافظ ابن حجر بأنه : " المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد " [5] .

وقيل هو : فراق الحق [6].

وقد جاء النهي عن الغلو في الدين في القرآن في موضعين , كلاهما في سياق النداء لأهل الكتاب :

الأول : فهو قوله تعالى : ☐ ٱ ب ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹ ٹڤ ڤ ڤڤ ڤ ڦ ڦ ڄ ڄ ڄڄ ڃ ڃ ڃ چ چچ چ چ چ چ ڇ ڇ ڍ ڍ ڍ ڌ ڌ ڌ ڎ ڈ ڈ ژ ژ ژ ☐ (سورة النساء : 171) .

والثاني : قوله تعالى : ☐ ٱ ب ٻ ٻ پ پ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ☐ (سورة المائدة : 77) .

---

[1] في ظلال القران , سيد قطب , 2/ 907-908 بتصرف .

[2] في ظلال القرآن , سيد قطب, 2 / 926 بتصرف .

[3] معجم مقاييس اللغة لابن فارس , تحقيق : عبد السلام هارون , 4/ 387 .

[4] المصباح المنير للفيومي , ص 452 .

[5] فتح الباري لابن حجر , 13 / 278 .الاعتصام للشاطبي , 1 / 304

[6] تفسير بن أبي حاتم , تحقيق : أسعد الطيب , 4/ 1122 .

والخطاب في الموضعين لأهل الكتاب للتعريض بهم , حيث أنهم خالفوا كتبهم التي بين أيديهم , وهو خطاب عام لأهل الكتاب من يهود ونصارى , إذ العبرة بعموم اللفظ , ودلالة السياق تدل عليه أيضاً , إذ كلٌ منهم غلا في دينه , وقول كل منهم على الله غير الحق , فليس عيسى رباً أو ابناً لله أو ثالث ثلاثة – كما زعمت النصارى – وليس ابن فحش وبغاء – كما زعمت اليهود – , وإن كان آخر الآية الأولى يختص بالنصارى وهو قوله تعالى □ ﭬ ﭭ ﭮ □ (1)

فالغلو يشمل الإفراط والتفريط , والناظر في السياق القرآني الذي ورد فيه النداء لأهل الكتاب بالنهي عن الغلو في الدين يجد أنه جاء بعد أن بين الله تعالى الحق في قضية عيسى وأمه , وصحح ما لحق بعقيدة أهل الكتاب من تحريف ، سواء في قصة الصلب والفداء أو التثليث أو بنوة المسيح υ وغيرها من العقائد التي دخلت إلى النصرانية في فترات متفاوتة من التاريخ , كغلوهم في الأحبار والرهبان , وادعاء العصمة فيهم , فاتبعوهم في كل ما قالوه حقاً كان أم باطلاً □ ۇ ۆ ۈ ۉ ۋ ۊ ۏ □ (سورة التوبة : 31) , وكذا غلوهم بابتداع رهبانية تعبدوا الله بها وهي لم تكتب عليهم ولم يؤمروا بها □ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ □ (سورة الحديد : 27) , وغلوهم في التعالي على الناس □ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ □ (سورة المائدة : 18) وكذا غلوهم فيما كان في جناب الله تعالى من وصفه سبحانه بالنقائص والعيوب من أمثال ما جاء في قوله تعالى : □ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ □ (سورة آل عمران : 181) وقوله : □ ۋ ۅ ۅ ﯦ ﯧ □ □ □ □ □ □ □ □ (سورة المائدة : 64) , والغلو في الدين له صور متعددة , ويلاحظ أن أغلب الانحرافات في دين أهل الكتاب منشؤها الغلو واتباع الأهواء .

فمن الغلو جاءت كل الانحرافات العقدية عند أهل الكتاب , ومن أهواء الحكام والمجامع النصرانية دخلت تلك المقولات على دين الله الذي أرسل به رسله . ومن هذين النداءين الإلهيين لأهل الكتاب نستخلص بعض الابعاد العقدية وهي :

* أولاً : النهي عن الغلو في الدين ، وليس المراد بالدين ما عليه أهل الكتاب بعد بعثة النبي ρ بل المراد بالدين الحق الذي جاء به موسى وعيسى – عليهما السلام – (2) فمن صور الغلو في الدين : الإصرار على الدين الذي دخله التحريف والتبديل (3) . ولما كان الغلو ربما أطلق على شدة الفحص عن الحقائق واستنباط الخفي من الأحكام والدقائق من خبايا النصوص , نفى ذلك بقوله □ ﭙ ﭚ □ وعرّفه ليفيد أن المبالغة في الحق غير منهي عنها , وإنما المنهي عنه تجاوز دائرة الحق بكمالها (4).

* ثانياً : الحكم بضلال أهل الكتاب جميعاً " يهوداً ونصارى " وإن كان وصف الضلال قد خص به النصارى كما في سورة الفاتحة , إلا أن الآية هنا تعم الجميع بالضلال , وتنهى أهل الكتاب المعاصرين للنبي ρ عن تقليد واتباع أسلافهم الذين ضلوا عن السبيل وأضلوا غيرهم ممن جاء بعدهم .

* ثالثاً : أهمية تصحيح التصور الاعتقادي فيما يتعلق بطبيعة العلاقة بين الخالق سبحانه وبين المخلوقات، حيث اعتنى القرآن الكريم عناية بالغة في تقرير حقيقة وحدانية الله , وحدانية لا تلتبس بشبهة شرك , أو مشابهة في صورة من الصور

---

[1] ينظر : تفسير الطبري 8/ 585 , وتفسير القاسمي , 4/ 220 .

[2] البحر المحيط في التفسير , لأبي حيان الأندلسي , 4/ 335 .

[3] التفسير المظهري , لمحمد ثناء الله المظهري , 3/ 150 .

[4] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور , للإمام البقاعي , 2/ 517 , وتفسير القاسمي 4/ 218 .

.كما اعتنى بتقرير حقيقة الصلة بين الله سبحانه وبين كل شيء , وهي صلة الألوهية والعبودية بحيث لا يدع في النفس ظلاً من شك أو شبهة أو غموض . مع بيان أن هذه الحقائق هي ما جاء به الرسل أجمعون , حيث قررها القرآن في سيرة ودعوة كل رسول , وجعلها محور الرسالة من عهد نوح υ إلى عهد محمد خاتم النبيين والمرسلين ρ , فمن العجيب أن نجد أتباع الديانات السماوية – وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة – يحرفون هذه الحقيقة وينسبون لله سبحانه – البنين والشركاء – ولا يمكن أن تستقيم حياة الناس وتصوراتهم إلا بتمحيص هذه الحقيقة من كل غبش ..فليس هناك إلا ألوهية وعبودية (1) .

* رابعاً : أن ما وقع فيه أهل الكتاب من غلو في الدين بلغ بهم إلى درجة الضلال والكفر , حيث صرح القرآن الكريم في أكثر من موضع بكفر من اعتقد تلك المقولات الغالية , بادعاء ألوهية المسيح أو بنوته أو التثليث أو تقديس الأحبار والرهبان ونحو ذلك , ولم يعد يحق لمسلم أن يعتبر هؤلاء على دين الله , والله سبحانه يقول : إنهم كفروا بسبب تلك المقولات , ومن ثم لا يصح أن نسمي ماهم عليه ديناً , وقد صرح الله بأنه كفر , فلن يكون الكفر ديناً يرضاه الله.

ومن ثم يصبح الحديث عن التناصر بين المسلمين وأهل الكتاب باعتبارهم أهل " الأديان " أمام الملاحدة حديثاً لا مفهوم له في اعتبار الإسلام , فمتى اختلفت المعتقدات على هذا النحو الفاصل , لم يعد هناك مجال للالتقاء على ما سواها , فكل شيء في الحياة يقوم أولاً على أساس العقيدة في اعتبار الإسلام ... . (2) .

المطلب السادس : الدعوة إلى مشروع جمع كلمة المؤمنين من أتباع الأنبياء

حيث بعث محمدٌ ρ في القرن السادس الميلادي , كانت البشرية بأجمعها في أمر مريج , ووضع مضطرب , لم يسلم منه أتباع الأنبياء السابقين ولا غيرهم , حيث وقع صراع مرير بين اليهود والنصارى , وبين الفرق المنتسبة إلى كل طائفة , أفضت إلى سفك الدماء , وقتل الأبرياء , واستحكام العداوة والبغضاء بين مختلف الفرقاء من أتباع الطوائف . وإلى جانب هذه الصراعات داخل المنتمين إلى الأنبياء , كانت البشرية تعج بأنواع الوثنيات والشركيات والخرافات , من مجوسية , وهندوسية , وصائبة , وبوذية وغيرها , تمخضت عن نتائج وخيمة على الإنسانية , وفوضى فكرية عارمة (3) .

وقد دعا النبي ρ البشرية جميعاً إلى عبادة الله تعالى وتوحيده كما أمره ربه بقوله □ ڭ ڭ ۀ ۀ ہ ۂ ۃ ۃ ھ ھ ھ ھ ے ے ۓ ۓ ڭ ڭ ڭ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ □ (سورة الأعراف : 158) ، وكان ممن دعاهم النبي ρ أهل الكتاب " اليهود والنصارى " حيث اتصل بهم وراسلهم ودعاهم إلى دين أبيهم إبراهيم , فكتب إلى زعامات النصرانية آنذاك مثل هرقل والمقوقس والنجاشي , يدعوهم ومن تحت سلطتهم إلى " كلمة سواء " واتفاق مشترك يتضمن ما يمكن تسميته " مشروعاً لجمع كلمة المؤمنين من أتباع الأنبياء , فضلاً عن الوثنيين " يتسم هذا المشروع بالحق والوضوح والبساطة والمتانة في آن واحد , ويمثل مخرجاً حقيقياً من اللغط الدائر , والجدل العقيم , وأساساً متيناً لاستئناف السير على منهج الله , ودرب الأنبياء , خلف خاتمهم وحفيد أبيهم إبراهيم υ.

---

[1] في ظلال القرآن – سيد قطب , 2/ 946 .

[2] في ظلال القرآن ، سيد قطب 2/ 947 .

[3] يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء , د . أحمد عبد الرحمن القاضي , ص8 .

وقد جاء النداء مغرياً لأهل الكتاب المعاصرين للنبي ρ ولمن يجيء بعدهم إلى آخر الزمان , واضعاً إياهم أمام مسؤولية تاريخية حاسمة قائلاً لهم ﴿ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﴾ (سورة آل عمران : 64) , إنه نداء يبين بوضوح ماذا يريد الإسلام من الناس , وماذا يضع لحياتهم من أساس , ويحدد معنى الدين و الإسلام , لتظهر حقيقة كل صورة مشوهة يدعي أصحابها أنها دين, وإنها لدعوة منصفة من غير شك , دعوة لا يريد بها النبي ρ أن يتفضل عليهم هو ومن معه من المسلمين ... كلمة سواء يقف أمامها الجميع على مستوى واحد , لا يعلو بعضهم على بعض , ولا يتعبد بعضهم بعضاً , دعوة لا يأباها إلا متعنت مفسد لا يريد أن يفيء إلى الحق القويم " [1] . وما جاء في هذه الآية

يعتبر ميثاق الوفاق الوحيد بين المسلمين وأهل الكتاب , فإما أن يدخلوا في عقدها فيكونون والمسلمين سواء أمة واحدة , وإما الافتراق الذي لا تلاقي معه ولا اقتراب , ولا سبيل ثالث , وهو خطاب من الوضوح والبيان بحيث لا يشتبه إلا على من في قلبه زيغ أو هوى , ومن صور هذا الزيغ :

1- تحريف معنى "كلمة سواء " عن المعنى الذي فسرت به في الآية ذاتها : فالآية في سياقها أوضحت معنى الكلمة السواء التي دعي إليها أهل الكتاب والتي تتضمن ثلاث قضايا أساسية متلازمة :

الأولى : توحيد الله عز وجل بالعبادة .والثانية : نبذ الشرك بجميع صوره .والثالثة : ترك الغلو وتقديس الأشخاص(2) .

حيث فسّر بعضهم معنى " كلمة سواء " بأنها : القدر المشترك المتفق عليه سلفاً , بين المسلمين وأهل الكتاب , وليس أمراً يدعى إليه أهل الكتاب وهو التوحيد الخالص من شوائب الشرك والغلو الذي وقعوا فيه .

يقول محمد حسين فضل الله : " إن هناك أكثر من قضية مشتركة يلتقي فيها المسلمون والمسيحيون في كل الساحات , وهي الكلمة السواء في التوحيد , ورفض الشرك ووحدة الإنسانية ورفض الاستكبار والاستعباد الإنساني" [3] . فمتى حصل هذا الالتقاء بين المسلمين والنصارى في التوحيد ورفض الشرك ؟ وهل كان خطاب القرآن تحصيل حاصل؟ وهل جرى هذا الاتفاق على مفهوم أهل الإسلام والتوحيد أم على قانون أهل الكتاب؟ .

ويقول محمد الحسن : " هدف الحوار مع المسيحية هو الوصول إلى "كلمة سواء " لعمل الصالحات والنافعات للبشرية ولمواجهة الطغيان , وتحقيق معرفة كل طرف بالآخر , وإزالة سوء الفهم , والتعاون على البر والتقوى ... على أن لا ينشغل الحوار بمسائل الاعتقاد بل ينطلق من احترام كل طرف لعقيدة الآخر " [4] .

ويقول د/ محمد عمارة : " هل يستطيع جميع الفرقاء أن يتفقوا على كلمة سواء : أن يتخذ أبناء كل شريعة , شريعتهم طريقاً ونهجاً خاصاً لتدينهم بالعقائد الأصلية للدين الإلهي الواحد ... فليحتفظ كلٌ بشريعته .. وليعترف الجميع بكل الشرائع " [5] . ولا شك أن هذا التفسير لمعنى "كلمة سواء " يناقض ما فسرتها به الآية ذاتها .

---

[1] في ظلال القرآن ، سيد قطب 1/ 391 , 406 , بتصرف .

[2] دعوة التقريب بين الأديان , د. أحمد عبد الرحمن القاضي , 4/ 1549 .

[3] في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي , محمد حسين فضل الله , / المقدمة.

[4] الحوار الإسلامي : الفرص والتحديات , د/ محمد الحسين, ص43 .

[5] الإسلام والوحدة القومية , د / محمد عمارة , ص 217 - 218 .

2- التهوين من شأن " كلمة سواء " : يقول كامل الشريف : " إن الحوار يقنع باللقاء على الحد الأدنى , بافتراض أن الاتفاق مهما كان صغيراً في البداية , إلا أنه يخلق ديناميكية خاصة ترتاد به أفاقاً جديدة في طريق الوفاق ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ (سورة آل عمران : 64) [1] .

ولم يقف حد الزيغ والهوى في تفسير معنى " كلمة سواء " عندما سبق , بل وقع البعض في اضطراب وتحرج من اتخاذ موقف واضح وجلي في علاقة الإسلام بأهل الكتاب في ظل وجود بعض القضايا المشتركة , جعلته يغض الطرف عن عقائدهم المنحرفة , بل وصل الأمر بالبعض إلى الدعوة إلى اصطناع دين ملفق من الأديان ذات الأصل السماوية من خلال إبراز أوجه الاتفاق , وإقصاء أوجه الافتراق , والامتناع عن النقد , والتوقف عن دعوة الآخرين لقبول الحق الذي يعتقده . وهذا المسلك شاع منذ نحو نصف قرن , حين أطلق المجمع الفاتيكاني الثاني المنعقد في الفترة من 1962م – 1965م , الدعوة إلى " تقارب الأديان " و " زمالة الأديان " وتلته مؤتمرات عديدة , ومحافل وندوات , وشيّدت لأجله " مجمعات المعابد " وأقيمت " الصلوات المشتركة " , وهذا المسلك وإن بدا لبعض الناس حلاً للعلاقة المتأزمة بين أتباع الديانات المختلفة , إلا أنه تضييع للحقيقة , وتلبيس يحول دون الوصول إلى الصواب .

والحل الوحيد : التنادي إلى " كلمة سواء " تقوم على أسس قوية , ومقدمات معقولة , تتكون من العناصر الآتية :

1- العبودية التامة لله سبحانه , وإفراده وحده بكل صور العبادة : وهذا أمر مجمع عليه في دعوات الأنبياء جميعاً ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ (سورة النحل: 36)

2- عدم الشرك بالله تعالى بأي صورة من الصور : قال سبحانه ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ (سورة الزمر : 65) ويخبر ربنا عز وجل عن أساس دعوة عيسى υ لبني إسرائيل بقوله : ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭴ ﭵ ﭶ ﭷ ﭸ ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ ﮃ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ (سورة المائدة : 72) .

3- ترك الغلو وتقديس الأشخاص ورفعهم فوق منزلتهم , وعبادتهم من خلال طاعتهم فيما يأمرون به وينهون عنه خلافاً لشرع الله , ومنحهم العصمة في أقوالهم , والصواب في تصرفاتهم , كما فعل أهل الكتاب بأحبارهم ورهبانهم , وهذه العناصر متوفرة في دين الإسلام , الذي بعث الله به نبيه الخاتم محمداً ρ وأمره أن يخاطبهم بها , وقد فعل ρ ما أُمر به في حال الضعف والقوة , والسلم والحرب , في داخل الجزيرة العربية وفي خارجها , ولم يتغير مضمون الخطاب العقدي أبداً , بل بقي ثابتاً مطرداً واضحاً , الأصل فيه قوله تعالى ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ (سورة النحل : 125) والمقصود بـ(سبيل ربك) : دين الإسلام وشريعته , كما يقول أهل التفسير [2] .

ولم يكن مضمون خطاب أهل الكتاب هو " التعرف على الآخر " أو " البحث عن المشترك " أو غير ذلك من المضامين التي تميع مفهوم الدين الحق , وتسوي بين أهل الإيمان وأهل الشرك والضلال , فإن أبوا فهي المفاصلة ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ (سورة آل عمران : 64) .

فكما أن الإسلام حريص على دعوة أهل الكتاب إلى الحق , فإنه لا يدع الأمر مطلقاً لا ينتهي إلى حدٍ واضح , بل يحزم أمره ويحمل غيره على تحديد موقفه بعد البيان التام , وإقامة الحجة , فإما الإسلام وإما التولي , وحينئذٍ لابد من الجهر

---

[1] مستقبل الحوار ، كامل الشريف , مجلة الإسراء , العدد 155 رجب 1408هـ , ص33 .

[2] انظر : الجامع لأحكام القرآن ،للقرطبي , , 10 / 200 , ونظم الدرر للبقاعي , 4/ 324 وفتح القدير للإمام الشوكاني , 203/3

والإعلان والإشهاد بعد المحاورات والمفاوضات المنتهية بالتولي والإعراض بأنا مسلمون , ومن سوانا ليسوا كذلك , وهكذا ينبغي أن يكون " البيان الختامي " من طرف واحد , لا أن يكون بحثاً عن " قضايا مشتركة " يعلنها الطرفان , فيكسب أهل الكتاب تنازل المسلمين عن دعواهم الأساسية ☐ ڃ ﭼ ﭼ ڃ ڃ ﭽ ﭽ ڃ ڃ ﭼ ﭼ ڃ ڃ ﭼ ﭼ ﯾﺪ ☐ (سورة آل عمران :64) .

الخاتمة

بعد هذه الجولة في ظل كتاب الله عز وجل , واستعراض النداءات الواردة فيه لأهل الكتاب , نخلص الى ما يأتي :

1- اهتمام القرآن الكريم ببيان طبيعة العلاقة مع أهل الكتاب , ويظهر ذلك من خلال كثرة ما ورد في القرآن الكريم من حديث عن أهل الكتاب , بصيغ مختلفة وأساليب متنوعة , منها أسلوب النداء والحوار .

2- أن النداءات الواردة في القرآن الكريم لأهل الكتاب تتضمن قضايا عقدية مختلفة لها أبعادها وتأثيرها في علاقة المسلمين بأهل الكتاب في الماضي والحاضر والمستقبل .

3- أن خطاب القرآن الكريم تميز بمجموعة من الخصائص , جعلته يختلف نوعاً ما عن خطاب غيرهم من الكفار من حيث البسط والتفصيل , والتنوع والتكامل في نصوصه ووسائله وأساليبه , مع تميزه بالوضوح والعدل والإنصاف , بالإضافة إلى استخدام المناهج العلمية المختلفة في مناقشة أهل الكتاب ومحاورتهم .

4- تضمنت النداءات القرآنية لأهل الكتاب عدداً من الأبعاد العقدية والمتمثلة في :

أ) بيان حاجة أهل الكتاب إلى بعثة النبي ρ .

ب) إبطال دعوتهم في وراثة الدين الحق الذي جاء به أبو الأنبياء ابراهيم υ ، وبيان بطلان ما هم عليه من الدين بعد تحريفه .

ج) تقرير كفر أهل الكتاب وعداوتهم للحق وأهله , وبيان أساليبهم في محاربته .

د) تقرير نقمة أهل الكتاب على المسلمين وبيان سببها .

هـ) النهي عن الغلو في الدين , والتحذير من نتائجه .

و) الدعوة إلى مشروع جمع كلمة المؤمنين من أتباع الأنبياء – عليهم السلام – على الأصول العقدية التي جاء بها الأنبياء , وتجددت معالمها في التوحيد ونبذ الشرك والغلو في الدين , والاستسلام لله تعالى بالدين الخاتم الذي جاء به خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام . والحمد لله رب العالمين ...

قائمة المراجع والمصادر

1. أحكام أهل الذمة لابن القيم , دار ابن حزم – بيروت , ط1 , 1997م .
2. الإسلام والوحدة القومية , د / محمد عمارة , المؤسسة العربية للدراسات , بيروت , ط2 , 1979م.
3. اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم , ابن تيمية , مكتبة الرشد ، الرياض , ط4 ، 1414هـ .
4. الأم ، للإمام للشافعي , دار الكتب العلمية ، بيروت , ط عام 1993م.

5. البحر المحيط في التفسير , لأبي حيان الأندلسي , دار الفكر – بيروت , طبعة عام 1420هـ.
6. تفسير الطبري , للامام : محمد بن جرير الطبري ، تحقيق : د/ التركي , دار هجر ، القاهرة , ط1 عام 2001م .
7. تفسير القاسمي , دار الكتب العلمية – بيروت , ط1 , 1418هـ .
8. التفسير المظهري , لمحمد ثناء الله المظهري , مكتبة الرشدية – باكستان , طبعة 1412هـ.
9. تفسير المنار , محمد رشيد رضا , دار إحياء التراث ، بيروت , ط1 , 2002م , 6/ 382 .
10. تفسير بن أبي حاتم , تحقيق : أسعد الطيب , مكتبة الباز – السعودية , ط3 , 1419هـ.
11. تهذيب اللغة لأبي منصور الأزهري , دار إحياء التراث العربي ، بيروت , ط1 ، عام 2001م .
12. الجامع لأحكام القرآن – للقرطبي , دار إحياء التراث , بيروت , 1372هـ , .
13. الحوار الإسلامي : الفرص والتحديات , د/ محمد الحسين , المجمع الثقافي ، أبو ظبي , ط1 , عام 1997م .
14. خطاب اهل الكتاب في القرآن الكريم ، احمد لطف البريهي ،رسالة ماجستير ، جامعة عدن ، 2008م .
15. دعوة التقريب بين الأديان , د. أحمد عبد الرحمن القاضي , دار ابن الجوزي – الرياض ط1 , 1422هـ .
16. صحيح البخاري , دار ابن كثير ، دمشق , ط5 , 1993م .
17. فتح الباري لابن حجر , دار المعرفة ،بيروت ,1379هـ , 13 / 278 .الاعتصام للشاطبي , المكتبة التجارية, ب.ت.
18. فتح القدير للإمام الشوكاني , دار الفكر – بيروت , ب.ت , 203/3 .
19. في آفاق الحوار الإسلامي المسيحي , محمد حسين فضل الله , دار الملاك ، لبنان , ط1 , 1414هـ .
20. في ظلال القرآن ، سيد قطب , دار الشروق , القاهرة , ط27 , 1998م , 2/ 861-862 .
21. لسان العرب لابن منظور , دار إحياء التراث ، بيروت , ط3 ، عام 1993م .
22. مستقبل الحوار ، كامل الشريف , مجلة الإسراء , العدد 155 رجب 1408هـ .
23. مسند الإمام احمد بن حنبل , تحقيق : الأرناؤوط , مؤسسة الرسالة –بيروت , ط1 , 2001م .
24. المصباح المنير للفيومي , المكتبة العلمية – بيروت , ب.ت .
25. معالم الدعوة في قصص القرآن الكريم , د / عبد الوهاب الديلمي ، مكتبة الإرشاد ، صنعاء , ط2 ، 1419هـ , .
26. معجم ألفاظ القرآن الكريم – مجمع اللغة العربية , دار الشروق – القاهرة , ب.ت .
27. المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي ، مجموعة من المستشرقين , مطبعة بريل , ليدن ، عام 1965م
28. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ،محمد فؤاد عبد الباقي , دار الفكر ، بيروت , ط2 , عام 1981م .
29. معجم مقاييس اللغة لابن فارس , تحقيق : عبد السلام هارون , دار الجيل ، بيروت , ب.ت .
30. المغني ، لابن قدامة , تحقيق : د / التركي , مطابع هجر , القاهرة , ط2 ، عام1992م .
31. المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني , دار المعرفة ، بيروت , ب.ت .
32. منهج القرآن الكريم في دعوة أهل الكتاب ، ا.د. علي سيد الفريسي، ام القرى –مكة المكرمة ، 1013هـ .
33. المهذب في تفسير جزء عم , علي بن نايف الشحود .
34. الموسوعة الفقهية , وزارة الأوقاف ، الكويت , ط5 ، عام 2004 م .

35. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور , للإمام البقاعي , دار الكتب – بيروت , 1995م .
36. نواقض الإسلام , محمد بن عبد الوهاب مع الشرح لسليمان العلوان , دار المسلم ، الرياض , ط6 , 1996م .
37. يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء , د . أحمد عبد الرحمن القاضي , كتاب مجلة البيان رقم (123) لعام 1431هـ.